الجوانب الجدية

فى حياة عمر بن أبى ربيعة

لقد أسلفنا القول فى حب ابن أبي ربيعة وشعره ، وقدمناه للقارئ فى صورته التى ألفها الناس فى حياته ، وتمثّلوها بعد مماته . فلم يبق إلا أن نقف قليلا عند الجوانب الجدية من حياة ذلك الشاعر الغَزِل الذى لم يره الناس إلاّ تِبْعَ نساء .

ولنُعِد مرة ثانية ما أشرنا إليه من قبل : فقد قلنا إن كثيراً من حوادثه الغرامية من صُنع الخيال ، وقد قبلناه على علاته ، واكتفينا بتلك الاشارة عند التمهيد لأخبار الملاح ، إذ كانت حوادث ابن أبي ربيعة التى أضيفت اليه تدلنا على شيئين : فهى أولاً علامة على أن المتقدمين أنِسُوا بروحه ، وأسلموا قلوبهم لوحيه ، فأبدعوا فى ظِلال ذكراه ما شاء الخيال من أحاديث الحب الظافر ، والهوى الغلاّب . وهى ثانياً دليلٌ على أنه كان للمتقدمين مَيلٌ إلى القَصَص الغرامي وحظ من الاجادة فيه . فكان من الخير أن نستغِلَّ تلك الباكورة القَصصية ونحن نتحدث عمن هَوِى هذا الشاعر من حِسان النساء .

ومن العجيب أنه لم يلتفت أحد من القدماء ولا المُحدثين إلى

حياة هـذا الشاعر الجدية ، ولم يخطر ببال باحث منهم أن الدنيا فى أحداثها وتصاريفها وأعاجيبها قد تكون ألأم من أن تسمح لشاعر بأن يظل عمره يمرح ويلعب فى ميادين الحب ، وملاعب الجمال .

لقد عاش ابن أبى ربيعة سبعين سنة ، وقد حدثونا أنه ودّع لهوه وهواه بعد الاربعين ، فياليت شعرى كيف قضى الثلاثين الباقية ، على فرض أنه أمضى آر بعينه الأولى ناعِم القلب ، وادع الروح ؟

ثلاثون سنة بلا لهو ولا عبث ، ولا تذكُّر ولا التياع !

هذا والله كثير على شاعر روّى شبابه بصهباء الرُّضاب ، وقضى فوق ترائب المِلاح ليالىَ وأياماً كانت كل لحظةٍ فيها خيراً من ألف سنة مما تعدون !

أصحيح أن ابن أبي ربيعة لم يقل كلمة واحدة فى بكاء شبابه ، والتوجُّع من مشيبه ، وأنه ودّع الشعر وداعا أبديا بعد الأربعين ؟ أم كانت له أقف شعرية لها لونٌ غير ذلك اللون المشرق ، وأن الرواة نسوها تناسوها لأن هواهم كان يقضى ببقاء تلك الشخصية الجذابة فى مَرحها ولهوها لِتظل متعة بين نكت السّمَر ، وأطايب الحديث ؟

نحن إذاً لانعرف شيئاً عن الفصل الأخير من تلك الرواية ، لأنهم أسدلوا الستار بعد انقضاء الفصل الثانى حين حلف الشاعر

لايقول بيتاً إلا أعتق رقبة . فلنبحث أكان الفصل الأول الذى مثّل لنا الشاعر وهو يعبث فى مناسك الحج صحيحاً فى جملته ، أم كان فصلا غير محكم الوضع ، ولا متقن التصوير ، أراد واضعه أن يبرز ما فيه من الجوانب الغرامية ، وأن يغفل الجوانب الجدية ، لحاجة فى نفس يعقوب ؟!

* * *

أكتب هذا وأنا أذكر كلمة الثريا وقد توسل إليها رسول عمر أن تعطف عليه ، فقد قالت :

« ابن أبى ربيعة فارغٌ ونحن فى شُغل »

وهي كلمة نقرؤها باسمين لأنها كلمة نسائية مألوفة من ربات الحِجال ، فانه إذا فرغ عمر وشُغلت الثريا فقد حق لنا أن نرتاب فيما نُسب إليه من الفراغ !

ومن العجيب أن هذا الشاعر الذى اتفق القدماء والمحدثون على فراغه وبطالته هو صاحب هذا البيت

كُتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

وهو بيت عميق الأثر فى النفوس العربية ، وطالما كان لهباً تقبِسُ

عزائم الثائرين — وهو كذلك صاحب هذين البيتين :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدت مرةً واحدةً إنما العاجز من لايستبد

والقارىء يعلم أن خصوم البرامكة دسّوا إلى الرشيد من غناه بهذا الشعر فثار بالبرامكة ، ومزّقهم كلّ ممزق ، بفضل رواح عمر بن أبي ربيعة الذى ظنوا شعره برداً وسلاماً ، وفيه لو يعلمون أنفاس السّعير !

ولقد حدّثونا أن أخاه الحارث كان ينهاه عن قول الشعر فيأبي أن يقبل منه ، وأنه أعطاه الف دينار ، على ألاّ يقول شعراً ، فأخذ المال وخرج إلى أخواله بِلَحْج وأبين (١) مخافة أن يهيجه مُقامه بمكة على قول الشعر ، فطرب يوماً فقال :

هيهات من أمةِ الوهاب منزلنا إذا حللنا بسيف البحر من عدن (٢)

واحتلّ أهلك أجياداً فليس لنا إلا التذكّرُ أو حظٌّ من الحزن (٣)

لو أنها أبصرت بالجزع عبرته من أن يغرّد قمريٌّ على فَنَن (٤)

إذاً رأت غير ما ظنت بصاحبها وأيقنت أن لحجاً ليس من وطني

(١) لحج وأبين من مخاليف اليمن (٢) سيف البحر ، بكسر السين ، هو ساحله

(٣) أجياد : موضع بمكة (٤) القمرى ، بضم القاف ، ضرب من الحمام ، والأنثى قمرية ، والجمع قمارى

ما أنس لا أنس يوم الخيف موقفها ... وموقفي وكلانا ثَمَّ ذو شجن
وقولها للثريا وهي باكية ... والدمع منها على الخدين ذو سُنن [1]
بالله قولي له في غير مَعتبة ... ما ذا أردت بطول المكث في يمن
إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها ... فما أخذت بترك الحج من ثمن

وأن القصيدة سارت حتى سمعها أخوه الحارث فقال : هذا والله شعر عمر ، قد فتك وغدر !

وأنا لا أصدق أن ابن أبي ربيعة ذهب إلى أخواله باليمن ليفر من نساء الحجاز ، ولا أقبل أن يكون ابن أبي ربيعة قَبِل الرشوة من أخيه ليتوب يوماً أو يومين قبل أن يموت !

فلا بد إذا أن يكون قد ذهب إلى اليمن في شأن من الشئون الجدية . ولكن ما هو هذا الشأن ؟ نحن لا نعرفه لأن الرواة لم يحدثونا عنه ، إذ كان من هواهم أن يخترعوا لهذه القصيدة سبباً طريفاً يضاف إلى ماله من شهيّ الاقاصيص

وقد حدثنا صاحب الأغاني أن مسعدة بن عمرو أخرج عمر ابن أبي ربيعة إلى اليمن في أمر عرض له ، وتزوجت الثريا وهو غائب ، فليتنا نعلم أي غرض هذا الذي أخرج من أجله عمر بن أبي ربيعة إلى اليمن ؟

(١) ذو سنن : ذو طرائق

فقد يكون أنشأ هذه الغونية فى هذه السَّفْرة ، إن لم يكن ذهب إلى اليمن مرتين لغرضين مختلفين

على أن صاحب الاغانى ذكر فى أخبار جميلة أنها لما قضت حجها سألها المكيون أن تجعل لهم مجلساً ، فقالت : للغناء أم للحديث ؟ قالوا : لهما جميعاً . فقالت : ما كنت لأخلط جداً بهزل ، وأبت أن تجلس للغناء ، فقال عمر بن أبى ربيعة : أقسمت على من كان فى قلبه حبٌّ لاستماع غنائها إلا خرج معها إلى المدينة ، فانى خارج ، فعزم جماعة من الاشراف والشعراء على الخروج ، فلما قدمت المدينة تلقّاها أهلها وأشرافها من الرجال والنساء ، فلما دخلت منزلها وتفرق الجمع إلى منازلهم ونزل أهل مكة على اقاربهم وإخوانهم أتاها الناس مسلمين ، فلما مضى لمقدمها عشرة أيام جلست للغناء ، وقالت لعمر بن أبى ربيعة : إنى جالسة لك ولأصحابك ، وإذا شئت قعد الناس لذلك اليوم ، فغصت الدار بالاشراف من الرجال والنساء ، فابتدأت جميلة فغنت :

هيهات من أمة الوهاب منزلنا إذا حللنا بسيف البحر من عدن

فضج القوم من حسن ما سمعوا ، ودمعت عينا عمر حتى جرى الدمع على ثيابه ولحيته ، وما رأوه كذلك من قبل

وهذه القصة تدلنا على أن ابن أبى ربيعة كان لا يزال يلهو ويتبع

النساء بعد قصيدته التى قالها فى اليمن شوقاً إلى الحجاز ، فلم يكن إذاً بالرجل الذى يقبل الرشوة من أخيه ليودع قرة عينه فى الحياة !

*
* *

وهناك فرض آخر لتوبة ابن أبى ربيعة ، فقد ذكروا أن عمر ابن عبد العزيز لما ولى الخلافة لم تكن له همة إلا عمر بن أبي ربيعة والاحوص فكتب إلى عامله على المدينة :

« قد عرفت عمر ، والاحوص ، بالخبث والشر ، فاذا أتاك كتابى هذا فاشددهما واحملهما إلىّ »

فلما أتاه الكتاب حملهما إليه فأقبل على عمر فقال له : هِيهِ

فلم أر كالتجمير منظر ناظرٍ ولا كليالى الحج أفلتن ذا هوى
وكم مالىءٍ عينيه من شىء غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدُّمى

فاذا لم يفلت الناس منك فى هذه الأيام فمتى يُفلتون ؟ أما والله لو اهتممت بأمر حجك لم تنظر إلى شىء غيرك — ثم أمر بنفيه . فقال يا أمير المؤمنين ، أو خير من ذلك . قال : وما هو ؟ قال : أعاهد الله أن لا أعود إلى مثل هذا الشعر ، ولا أذكر النساء فى شعر أبداً ، وأجدد توبةً على يديك . قال . أو تفعل ؟ قال نعم . فعاهد الله على التوبة وخلاه

ولم تقف قصة هذا الشعر عند عمر بن عبد العزيز ، فقد ذكروا أيضاً أن سليمان بن عبد الملك حج وهو خليفة فأرسل إلى عمر بن أبى ربيعة فقال له : ألست القائل :

وكم من قتيل ما يُباء به دمٌ ومن غَلِقٍ رهنا إذا لفّه مِنَى

قال نعم ، فقال : لاجَرَم ، والله لاتحضر الحج مع الناس هـذا العام ، وأخرجه إلى الطائف ،

أفكان هذا الشعر بعينه شُؤماً على صاحبه إلى هـذا الحد : فيُمنع من الحج مرة، وينفى مرة ؟ !

أما أنا فأستبعد ذلك ، وأرجح أن أنصار بنى أمية أرادوا أن يبالغوا فى وصف خلفائهم بالحزم والغيرة على الحرمات فصوروا ابن أبى ربيعة طريداً لعبد الملك بن مروان [1] وسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز

(١) وفد عمر على عبدالملك فادخل عليه فسأله عن نسبه فانتسب له؛ فقال :

لاأنعم الله بعين عينا تحية السخط اذا التقينا

أنت لاأم لك القائل :

نظرت اليها بالمحصب من منى ولى نظر لولا التحرج عارم
فقلت أشمس أم مصابيح بيعة بدت لك تحت السجف أم أنت حالم
بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم

ثم قال له : قاتلك الله فما ألأمك ! أما كانت لك في بنات العرب مندوحة عن بنات

وهذا ليس بغريب فى بابه : فقد اخترع أشياع عمر بن الخطاب حكايةً جازت على الناس إلى اليوم حتى ادخلها شاعرنا حافظ بك ابراهيم في قصيدته العمرية ، وهى حكاية نصر بن حجاج ، إذ زعموا أن عمر سمع امرأة تتغنى فى هدأة الليل :

هل من سبيلٍ إلى خمر فأشربَهَا أم هل سبيل إلى نصر بن حجّاج

فغضب وطلب نصر بن حجاج فاذا هو فتى وسيم الوجه ، أجمل ما فيه شعَره ، فأمرَ أن يُحلق لتُتّقى فتنته ، ولكنه نظر فاذا هو أفتن الناس وهو حليق ، فأمر بنفيه من المدينة !

وأنا لاأشك فى أن هذا من حديث خرافة ، فما كنت لأصدق أن عمر بن الخطاب يفرُغ لهذه السفاسف أو ينفى فتى لاذنب له إلا أنه جميل ، وهو يعلم أنه ينقل فتنته إلى غير المدينة من أمصار المسلمين

* * *

عمك ؟ فقال عمر : بئست والله هذه التحية ياأمير المؤمنين لابن العم على شحط الدار وتنائى المزار

وله مع عبدالملك موقف آخر أشرنا اليه في المحاضرة الثالثة . وفي كلا الموقفين يتنكر عبد الملك ويقف من الشاعر موقف المسيطر الغضبان . ولهذا النحو من الحديث دلالته على حرص اشياع بنى أمية في تصوير خلفائهم بصورة الجد والوقار فى معاملة الغزلين من الشعراء

وقد استقصيت أخبار عمر بن أبي ربيعة لأحد ما كان فى حياته من الجوانب الجدية ، فرأيت مثلا أنه كان يشتغل بالدفاع عن قومه بنى مخزوم ، وانه كان يقارع خصومهم ، وله في ذلك حديثه المشهور يوم نازع اللهبى فى المسجد الجامع[1]. ورأيت أيضاً انه كان حريصا مسرفاً فى الحرص على الاستبداد بالحياة الأدبية : فكان يعارض جميلا وجريراً والفرزدق والأحوص ومالك بن أسماء ، وهذا نوع من الجد لو دوّنت أخباره لكان أمتع وانفع من أخباره فى أيام الطواف ورأيت كذلك أنه تزوج غير مرة ، وكان له بنون وبنات ، وهذه شئون جدها جد ، وهزلها جد ، لو عُنى بها الرواة لأَرونا كيف كان يقابل هذا الشاعر مضاعب الحياة

وقد مرت بالقارئ اشارات إلى مواقفه مع جميل والفرزدق ونُصيب وكثير ، وله معهم حديث آخر سيجيء فى باب المُلح والفكاهات فلنذكر هنا حديثه مع مالك بن أسماء ، فقد كان مفتوناً بشعره ، وكان يتشوق إليه منذ سمع قوله

ان لى عند كل نفحة بستا ن من الوردأو من الياسمينا
نظرةً والتفاتةً أتمنّى أنً تكونى حللت فيما يلينا

(١) ص ٨ ، ٩ ج ١٥ من الاغانى طبع بولاق

فلما تلاقيا وتعارفا وتناشدا قال له عمر : ما أحسن شعرك لولا أسماء القرى التى تذكرها فيه . قال : مثل ماذا ؟ قال : مثل قولك :

ان فى الرفقة التى شيّعتنا بجوريسما لزينَ الرِّفاقِ

ومثل قولك :

حبذا ليلتى بتلّ بَوَنّا حيث نُسقى شرابنا ونُغنّى

فقال له مالك : هى قرى البلد الذى أنا فيه ، وهو مثل ما تذكره فى شعرك من أرض بلادك : قال : مثل ماذا ؟ قال : مثل قولك

حىّ المنازل قد دثرن خرابا بين الجوين وبين وكن كسابا

ومثل قولك :

ما على الرسم بالبليّين لو يبـ ـنَ رجع السلام أو لو أجابا

وفى هذا الحديث نحوٌ من الجد فى نقد الشعر ، ونظن أنه كانت له اتجاهات أدبية فى النقد لم يدونها الرواة إذ صرفوا همهم إلى حياته الغرامية

قلت إنه تزوج غير مرة ، وكان له بنون وبنات ، فلا أذكر أنى لم أستطع التثبت من عدد زوجاته ولا أبنائه ، لأن الرواة أغفلوا الافاضة فى هذا الجانب من حياته الجدية ، فلم يبينوا كيف كان يعامل

زوجاته ، ولا كيف كان يربي أولاده ، ولا كيف كان يتصرف فى تثمير أمواله ، وتقويم عبيده وإمائه ، ولم يعيّنوا « الحوائج » التي ذكروا فى غير موطن انه كان يعتمد فى قضائها على الخلفاء

ومع أن الرواة حدثونا أنه هجر الشعر بعد الأربعين فقد حدثونا أيضا أنه نظر فى الطواف إلى امرأة شريفة فرأى أحسن خلق الله صورة ، فذهب عقله عليها وكلمها فلم تجبه ، فقال فيها شعراً جزعت منه فقيل لها اذكريه لزوجك فانه سينكر عليه قوله ، فقالت : كلا والله ، لا أشكوه إلا إلى الله ، ثم قالت : اللهم ان كان نوّه باسمى ظالما فاجعله طعاماً للريح . فاستجيبت دعوتها إذ غدا يوماً على فرس فهبت ريح فنزل فاستتر بسلمة ، فعصفت الريح فخدشه غصن منها فدمِىَ وورم به ومات من ذلك . والاختلاق ظاهر فى هذا الحديث

ومن الرواة من حدّث أنه مات فى غزوة . والعجيب أن تدون حوادثه الغرامية بما رأى القارىء من التفصيل ، ولا يتفق الرواة فى حديثهم عن وفاته .

أفنراهم أنصفوا يوم رأوا الموت غير خليق بعناية الأحياء .